الفصل الأول

التدخين

● نشأته وأصله واستعماله :

لم يُعرف التدخين فى الدنيا القديمة قبل أن يستكشف « كرستوف كولومب » القارة الأمريكية . فقد نشأ التدخين أول ما نشأ فى أمريكا الجنوبية . ولذلك يقرر المؤرخون أن كلمة « التبغ » مشتقة من كلمة « تباغو » ، وتباغو اسم جزيرة من جزر أنتيل فى المكسيك . وقد انتقل التدخين من أمريكا إلى أوروبا عن طريق البحارة الأسبانيين ومن ثَمَّ انتقل إلى آسيا . فسائر أنحاء المعمورة .

والواقع أن « كولومب » أرسل بذور التبغ إلى أسبانيا باعتباره نبات طبى فيه فوائد لبعض الأمراض . بَيْدَ أن الفكرة تطوَّرت فأساء العالَم استعماله ونسى الغرض الأساسى الذى نُقِلَ بسببه من العالَم الجديد .

والتبغ نبات من الفصيلة الباذنجانية ذو ساق أسطوانى قاتم وأوراق بيضاوية لزجة كبيرة الحجم وله رائحة كريهة مخدرة ، وهو يتركب من عدة مواد منها : النيكوتين والبريدين والبوتاس والنيكوتيانين والكوللين والأيدروچين وأوكسيد الكربون وحامض البروسيك وكلها سموم خطرة . وأشدها فتكاً بالجسم «النيكوتين » وهو الجزء الهام فى التبغ . وهو عبارة عن سائل زيتى شفاف لا لون له كثير الكثافة طعمه حرِّيف لذّاع ورائحته كريهة ويُعَد بالنسبة للسموم الخطرة فى المرتبة الثانية بعد حامض البروسيك الذى هو أفتك السموم حيث تكفى نقطة واحدة منه على اللسان لقتل الإنسان فى الحال .

* * *

● عقوبة الإعدام :

ولقد كان التدخين فى مبدئه عادة حقيرة ينبذها جمهور الناس حتى إن الملوك والسلاطين الذين بدأت تُعرف فى عهودهم كالسلطان مراد الرابع وجاك الأول

ملك إنجلترا والشاه عباس الصفوى ملك إيران وغيرهم من الملوك المعاصرين منعوا شربه وعطلوا أسواقه وحاربوا تجارته بل تطرُّف بعضهم وفرض عقوبة الإعدام على متعاطيه . لذلك اقتصر أول الأمر على طبقات وضيعة منبوذة شأنه شأن الأفيون والحشيش فى مصر الآن . بَيْدَ أنه انتقل تدريجاً من السفلة والرعاع إلى سائر الطبقات ، إلى أن شاع استعماله شيوعاً يدعو إلى الدهشة والحسرة والتأمل .. فارتفع عنه الحَجر العُرفى والمنع الدولى . واضطرد استعمال التبغ فسرى إلى كثير من الطبقات . حتى إلى بعض الأطباء ورجال الدين . وأهل الحصافة والرأى .

* * *

● إيراد للدول :

ومما يجدر ذكره أن أول مَن جعل من الدخان مورد إيرادات لخزانة الحكومة هو جاك الأول ملك إنجلترا . ومن الغريب أنه كان من ألد أعداء التدخين . وكان يصف رائحة الدخان بأنها تشبه رائحة الجحيم ، فعمد لكى يمنع انتشاره فى البلاد إلى فرض ضريبة باهظة على هذا النوع من المحصول ، فوجد بعد حين أن التدابير التى اتخذها بفرض هذه الضريبة لم تستطع أن تحول دون استهلاك الدخان فى أنحاء بلاده . بينما أخذت الأموال فى الوقت نفسه تتدفق إلى خزانة الدولة .

وسرعان ما ذاع المثل الذى ضربه الملك جاك الأول لمحاربة الدخان فى مختلف بلدان العالَم . وتحوَّلت المسألة من محاربة التبغ إلى اعتباره مصدر إيراد للدولة . ثم تدرج الأمر على مدى الأيام وأخذ التدخين ينتشر وتروج تجارته .

وقد كان الدوق مانتو جورجونزا أول مَن قرر تعهد صناعة الدخان واحتكاره . ثم اتُبِعَ هذا النظام إثر ذلك فى جمهورية ڤينيسيا .

وعلى ذلك يكون تاريخ النظامين فى إنتاج الدخان سواء أكان الاحتكار أو الضريبة ، يرجع إلى ما يزيد على ثلاثمائة سنة .

* * *

● نشأة التدخين فى مصر :

جاء فى « لطائف أخبار الدول » للإسحاقى : أن الدخان عُرِفَ لأول مرة فى مصر سنة ١٠١٢ هـ وهو مؤرخ معاصر لذلك الوقت . وذكر رأيه فى الدخان فقال : « إن الدخان مضر بالأبدان . وهو يحبس الطباع . ويُضعف الرغبة الجنسية . مُسَوِّد للأسنان . مُهَرِّب للائكة الرحمن . يُورث النتن فى الفم والمعدة . ويُظلم البصر .. إلخ » .

وكانت تصدر أحياناً أوامر بمنع تعاطيه جهاراً ، فقد ذكر الجبرتى فى حوادث عام ١١٥٦ هـ : « أن الوالى العثمانى أصدر أوامر بمنع شرب الدخان فى الشوارع وعلى الدكاكين وأبواب البيوت . وشدَّد فى النكال بمن يفعل ذلك » .

ولكن فى أواخر العصر العثمانى انتشر الدخان بين الرجال والنساء . وكانت النارجلية من ضمن أمتعة العروس . وقد مهر الصنَّاع المصريون فى صناعة الأراجيل . وانتشرت تجارة التبغ والفحم والعنبر . وزادت أرباح أصحاب المقاهى .

واشتغل الفلاحون بزراعة الدخان ، وفى ٢٥ يونية سنة ١٨٩٠ صدر أمر عال بمنع زراعة الدخان فى مصر . وأُلحق به أمر آخر فى ١٢ مايو ١٨٩٢ ينص على عقاب مَن يزرع دخاناً أو تمباكاً بغرامة ٢٠٠ جنيه عن كل فدان . أو جزء من الفدان ، ومصادرة الزراعة وإتلافها . وفُرِضَت ضرائب على الدخان المستورَد . وبذلك زاد دخل الحكومة زيادة هائلة .

وفى منتصف القرن التاسع عشر عرف المصريون طريقة لف التبغ فى ورق رقيق . كان وما زال يُستورَد من أوروبا . وفى أواخر القرن المذكور ظهرت مصانع لف السجائر .

* * *

● أساليب المدمنين :

وللمدمنين أساليب عديدة فى استعمال التبغ ، فمنهم مَن يدخنه على هيئة سجاير أو سيجار وهما الأكثر شيوعاً . ومنهم مَن يدخنه فى « غليون » وبعضهم يلوكه أو يستنشقه بعد إضافة جانب من النطرون أو النوشادر إليه .

ومنهم مَن يضعه فى عسل بطريقة خاصة ليزيد فى تأثيره ثم يدخنه فى نرجيلة (شيشة) أو جوزة وهو ما يسمى بالدخان المعسل .. إلخ - وما من طريقة من هذه الطرق أو سواها إلا وثبت ضررها - وإن تباين مقدار الضرر فى كل منها - ثبوتاً لا يقبل الجدل . رغم أن بعض المدمنين يحاول الدفاع عن النوع الذى يتعاطاه ، فلقد سمعتُ من أحد « المشايخ » فى معرض دفاعه عن إدمانه السعوط (النشوق) أنه يمنع الصداع وآلام الأسنان ويمنع الخمول والميل للنعاس ، ولقد ذكرنى دفاعه هذا بالقصة التاريخية المشهورة عن الملكة كاترين دى مدسيس إذ كانت هذه الملكة أول مَن استعمل التبغ كنشوق [1] . فقد كانت مصابة بصداع مزمن ووجدت في أول الأمر مخففاً لآلامها فى هذا المُخَدِّر ، ولكنه - ككل مخدر آخر - سرعان ما فقد تأثيره فاضطرت الملكة أن تلجأ للمزيد منه . وهكذا حتى جاء اليوم الذى لم تنفعها أكبر كمية منه . بل وجدت نفسها أمام مرضين : مرض الصداع ومرض المُخَدِّر .

والقوانين المصرية تُحَرِّم زراعة الدخان . ومن هنا كان سر ارتفاع أثمانه لفداحة الضريبة الجمركية عليه . ومن هنا أيضاً كان الغش الذى تلجأ إليه بعض شركات الدخان بإدخال عناصر غريبة إلى صناعته وخلطه بالقش والحُصر القديمة وأشياء أخرى يعرفها الغشاشون مما يزيد فى مضار التدخين ويُعَرِّض المدخن لشر الأمراض .

ولسنا نتجنى على هذه الصناعة البغيضة بذكر ذلك الغش . فنحن لم نُلِم بهذه الطرق إلا بعد أن كشفت عنها الحوادث فى إحدى السنوات الماضية ، حيث ضُبِطَت شركة من شركات الدخان كانت ترسل مَن يبتاع لها الحصير القديم من محلفات المساجد التى كانت تطرحها وزارة الأوقاف فى مزادات علنية ... أجل

---

(١) لذلك يسمى التبغ عند بعض الفرنسيين « حشيش الملكة » ويسمى مسحوقه « سعوط الملكة » .

ضُبِطَت كميات هائلة من هذا الحصير فى مخازن إحدى الشركات . وبتحليل السجاير التى كانت تنتجها هذه الشركة وُجِدَت أنها تحوى كمية كبيرة من قش الحصير ، ويومها كانت مصر منغمسة فى حمأة الفساد ووحل الرشوة . فلعب المال دوره فى كم الأفواه عن إذاعة تلك الأنباء .

وهكذا يبلغ استهتار بعض الشركات بصحة المواطنين فتضن حتى بالقش الجديد لخلطه بدخانها .

* * *

● تجارة السبارس :

فإذا أضفتَ إلى هذه الأساليب « تجارة الأعقاب » (البيبارس) التي يباشرها الغلمان علانية تحت سمع الدولة وبصرها . لأدركتَ أى خطورة تتعرض لها حياة المدخن فى هذا البلد ، ولا تحسبن أن هذه الأعقاب (السبارس) تُجمع لحساب نفر من الصعاليك .. كلا ، إنها تجارة كبيرة .. يتجمع منها ملايين الجنيهات كل عام تبدأ حقيقة بالصعاليك . ولكنها تنتهى إلى مخازن شركات كبيرة فتدس بين لفائفها الفاخرة المنمقة ليدخنها الأغبياء على أنها أجود أنواع الدخان التركى أو القرجينى .

وفى أمريكا .. لا يمر عام إلا ويُقَدَّم أحد أصحاب شركات السجاير للقضاء . لإنتاجه نوعاً من السجاير يثبت أنه يصنعه من الأعقاب ، أما عندنا فلا يحدث ذلك .. ليس لنزاهة شركاتنا ونظافتها . ولكن لغفلة القانون .

* * *